

التنصر العربي في ظل الكوارث الكبرى التجليات والتحوّلات الثقافية بين عصري الجاهلية والإسلام

♦ أ.م.د. وسام حسين جاسم العبيدي*

● المقدمة:

لعل من نافلة القول، أن نثبت ما للأدب من صلة قوية بهوم الإنسان وكل ما يشغله من أمور من حوله، المادية منها والمعنوية على حد سواء، فقد شغلته الحياة بكل ما تقع عليه عيناه، وشغله الموت أيضاً، وهكذا تشغله الأمور الكبيرة كما الصغيرة، فأدبه ليس إلا تعبيراً صادقاً عن كل ما يشغل اهتمامه، ومن هذه الزاوية، كان للباحث أن يختار الوقوف على تلك النماذج الشعرية التي عبّرت عن اهتماماته الكبرى بكل ما يكثر له، وكل ما يُقلق باله، فكانت الكوارث البيئية أو الوبائية، موضوع البحث، بادئاً البحث بعرض دلالة المفهوم (الكارثة) منتهياً من تلك الإضاءة المفهومية إلى وضع مصطلح للكارثة بمعناها المتداول في لغة العرب، ثم الانتقال في المحور الذي يليه إلى بعض الشواهد التي تعبّر عن قدم أدب الكوارث، وملازمته الإنسان في أقدم الحضارات على وجه الأرض، مُشيراً في الوقت نفسه إلى طريقة تعاطيه مع الكارثة، وفق العقلية التي انطلق منها يُحلّل حدوث تلك الكوارث، ويُعلل أسبابها، ويقترح الحلول التي تتكفل معالجتها. وفي المحور الذي يليه تصدّى الباحث لعرض بعض النماذج التي بمجموعها تمثّل تجليات أدب الكوارث في التراث العربي، بين عصري الجاهلية والإسلام، راصداً المرجعيات الثقافية التي حفّت كل عصر، وجعلت الشاعر فيها يعبر عنها في خطابه الشعري، وملاحظة تلك النوازع الذاتية في تلك النماذج وما يتوارى خلفها من موجّهات ثقافية، ينفع في الاستدلال بأنّ الشعر يؤكّد مستوى التطور الفكري الذي وصله الشاعر بوصفه ابن ذلك المجتمع، ومن خلاله يُمكن التعرف على مخيال الجماعة التي يعيش في وسطها. ثم انتهى البحث بأهم النتائج التي توصل إليها، وكانت المصادر والمراجع آخر ما في البحث.

* كلية الإمام الكاظم (ع).

المحور الأول:

أدب الكوارث، الدلالة اللغوية والمصطلحية:

الناظر في معاجم اللغة العربية، يجد أن دلالة الكارثة لا تخرج عن معنى المشقة، وقد استعمل الفعل المزيد منه بحرفين على وزن: افتعل، فتقول: اكترث فلان، أي شق عليه، والثلاثي أيضًا مُستعمل، «من قولك: ما كرثني هذا الأمر، أي: ما بلغ مني المشقة»^(١).

وفي ضمن استشهداهم بكلام العرب، أورد اللغويون قول الإمام علي بن أبي طالب: «في سكرةٍ مُلهته وغمرة كارثة» أي شديدة شاقة. وكرثه الغم يكرثه، وأكرثه: أي أشد عليه وبلغ منه المشقة»^(٢). وقد عدّه ابن الأثير (ت: ٦٠٦ هـ) من غريب الحديث، بمعنى أن الكلمة - بهذا الاشتقاق - لم يكن لها كثير تداول في استعمال العرب آنذاك، ويمكن لنا أن نستدل بما ورد عند المتأخرين من في رائية ابن عبدون (ت: ٥٢٩ هـ) في قوله منها^(٣):

أو دفع كارثة أو رديع زادفة

أو قمع حادثة تُعيب على القدر

ويمكن أن نتحصّل مما ورد في المعاجم الحديثة، على تعريف للكارثة بأنها «النّازلة العظيمة والشدة كوارث ويقال كرثته الكوارث أقلقته»^(٤). وبهذا يكون المعنى شاملاً لكل ما من شأنه إقلاق النفس الإنسانية، لا بصورة فردية، وإنما يكون تأثيرها على عموم المجتمع، وتتسبب بموت جماعي أو القضاء على أكثر عدد من أفراد الجماعة تلك.

المحور الثاني:

أدب الكوارث، إضاءة تاريخية:

لما كان الإنسان على هذه الأرض معرضاً لشتى الظروف المحيطة به، فهو مهدّد أيضاً بما لا يمكن له مقاومته منها، فتكون الكارثة حينها، سبباً في إفنائه والقضاء عليه، ولما كان الأدب - من شعر

ونثر - رفيق الإنسان في حله وترحاله، بوصفه الانعكاس النفسي الذي يُترجم ما يجول في خاطره من عواطف وأفكار، فمن الطبيعي أن يكون للكارثة حصة فيه، على الرغم من كونها - الكوارث - سبباً في ضياعه واندثاره، باندثار صاحبها الذي لم يقو على الصمود بوجهها، يدلنا على ذلك ما تنبّه إليه محمد بن سلام الجُمحي (ت: ٢٣٢ هـ) في رده على محمد بن إسحاق الذي روى من أشعار الأمم البائدة التي أخبر القرآن الكريم عنها، «فكتب في السير أشعار الرّجال الذين لم يقولوا شعراً قطّ وأشعار النساء فضلاً عن الرّجال ثمّ جاوز ذلك إلى عاد وثمود فكتب لهم أشعاراً كثيرةً وليس بشعر إنّما هو كلام مؤلف معقود بقواف أفلا يرجع إلى نفسه فيقول من حمل هذا الشعر ومن أداه منذ آلاف من السنين والله تبارك وتعالى يقول {فقطع دابر القوم الذين ظلموا} أي لا بقيّة لهم»^(٥)، وهو استدلالٌ صحيح، إذ يعمل مفعول الكارثة - أياً كان مصدرها - على طمس الآثار الخطابية من كتابات وغيرها، فلا يمكن أن نعثر عليها، وإن عثرنا، فهي مشوبةٌ بعلامات الشك والتضعيف.

ويمكن أن نطمئن لما يُكتب عن الكارثة بعد وقوعها، وهو أيضاً يدخل في ضمن أدب الكوارث؛ لكونه يتحدّث عنها، من ظروفٍ صاحبت أولئك الذين تعرّضوا لها ممّن حالفهم الحظ بالهروب منها، أو مشاهدة الذين وقعت فيهم الكارثة، فتحدّثوا عنهم وحكوا أحوالهم، وكأنّها واقعةٌ بهم. ومن الشواهد على ذلك ما وصلنا من بعض فقراتٍ في ملحمة جلجامش، تحدّثت لنا عن الطوفان العظيم، وذلك حين طلب جلجامش من «أوتانبشتم» - الإنسان الوحيد الذي يتمتع بالحياة الدائمة فاخترت بما للآلهة من خصوصية - أن يُفصح له عن الكيفية التي نال الخلود بموجبها، فبدأ يسرد له قصة الطوفان، معرباً له عبر هذا السرد أن ثمة اجتماعاً للآلهة - أو ما يُسمّى بالأنوناكي - تأمرت فيه على البشرية، وقضت من خلاله على الحكم

(٥) طبقات فحول الشعراء: ص ٨.

(١) كتاب العين: ج ٥ / ص ٣٤٩. (ك ث ر).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر: ج ٤ / ص ١٦١.

(٣) المطرب من أشعار أهل المغرب: ص ٣٢.

(٤) المعجم الوسيط: ج ٢ / ص ٧٨٢ (كرث).

بالإبادة الجماعية لبني البشر، إلى آخر فصول الملحمة، فحكّت لنا الملحمة ما حلّ بالأرض من طوفان عظيم، وقد ورد ذكر آلهة الوباء والطاعون المسمى بـ(إيرّا) على لسان آلهة الماء العذب عند السومريين المسماة بـ(إيا) مُحاطبًا (إنليل) إله الرياح والهواء والأرض والعواصف عند السومريين، في قوله معاتبًا الأخير على تسرعه بالطوفان^(٦):

وبدلاً من الطوفان لو أنّ (إيرّا) فتك بالناس

بما يُضيء لنا هذا النص، أنّ الناس منذ قديم عهدهم قد هالهم الوباء، وأخافهم أيما إخافة، فأوكلوا إليه في مخيالهم الجمعي إلهاً يقدمون إليه الذور، ويتوسلون إليه أن يكفيهم شروره فيما لو غضب عليهم..

أما في تراثنا العربي، فقد تناقل الرواة أنّ أول من دشّن أدب الكوارث، أبونا آدم في قوله راثيا ولده هابيل:

تغيّرت البلاد ومن عليها

فوجه الأرض مغبرّ قبيح

تغيّر كلّ ذي طعم ولون

وقلّ بشاشة الوجه المليح

وبغضّ النظر عمّا قيل من اعتراض على هذه الرواية من بعض علماء الشعر ونقدته^(٧)، فإنّ مضمونه يدلّ لنا بما لا خفاء فيه، أنّ قتل هابيل ليس جريمة تعود بالأذى النفسي لأولياء المقتول

(٦) ملحمة كلكامش، طه باقر: ص ١٨٧.

(٧) قال محمد بن محمد حسن شُرّاب: «هذان البيتان منسوبان إلى أبينا آدم عليه السّلام، وقد يكون قائلهما، ولكن ليس بلفظهما، وإنما قال معناهما، أو أن الشاعر ترجم عن حال آدم عليه السّلام عند ما قتل قابيل أخاه هابيل، أما واضح لفظ البيتين فهو من المتقدمين، وقد يكون من أهل القرن الثاني الهجري، وفي النصف الثاني على وجه التحديد، عند ما بدأت مسائل النحو في الظهور، وبدأ الصراع بين الآراء. ولأنّ البيتين ذكرا في قصة بمجلس ابن دريد، (ت: سنة ٣٢٥ هـ)، وكان أبو بكر ابن دريد يحفظهما، وقد أنشدهما واحد ممن يحضر مجلسه، فشيوخ البيتين في أيام ابن دريد دليل على أنّ واضعهما متقدم، شرح الشواهد الشعرية في أمات الكتب النحوية: ج ١/ ص ٢٥٥.

فحسب، بل كان لها تأثيرٌ إجماليٌّ على الموجودات الطبيعية في الأرض الناطقة منها والصامتة.

المحور الثالث:

شعر الكوارث: تجلياته وأنساقه الثقافية في

الشعر العربي في العصرين الجاهلي والإسلامي:

ويمكن أن نعدّ صور الهلاك الجماعية من قتل على يد الأعداء، وما يحدث بعدها من انتهاك لحرمة الجماعة على يد أولئك، وتخريب لأماكن تواجدهم، والدليل على خوفهم من القتل الجماعي، ما يعكسه أثر الكاهن في مخيال ذلك المجتمع، إذ «كثيراً ما كانوا يندرون قبائلهم بوقوع غزو غير منتظر، كما كانوا كثيراً ما يفسرون رؤاهم وأحلامهم. فمنزلة كهّانهم في الجاهلية كانت كبيرة»^(٨)، فخوفهم من وقوع الكارثة، تطلّب حينها أن تكون لهم مجسّات راصدة تمثّلت بالكهانة، التي من شأنها إحاطتهم بكلّ ما يُخاف منه من أخطار خارجية. أو فتك بالأوبئة والأمراض الجائحة، أبرز تجليات الكارثة الإنسانية التي تتسبّب بإزهاق أكثر عدد من الأرواح، ونضمّ إلى تلك الصور، ما يقع على الناس من مجاعات تتسبّب أيضاً بموتهم البطيء، وقد ورد في بعض التفاسير، أن المقصود بقوله تعالى: {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ} «فيه قولان: أحدهما: يعني بالجوع، قاله مجاهد، وقناة. والثاني: أن معنى السنين الجدوب، قاله الحسن. والعرب تقول: أخذتهم السنة إذا قحطوا وأجدبوا. وقال الفراء: المراد بالسنين الجدب والقحط عاماً بعد عام»^(٩). ومعلوم أنّ الجزيرة العربية بطبيعتها البيئية القاسية، كانت معرضة إلى خطر المجاعة في أكثر عصورها، بما يُعلي في الجهة المقابلة قيمة الكرم وإطعام الطعام، وإشاعتها أبرز القيم النبيلة التي يستحق صاحبها الخلود والذكر الحسن بين القبائل، ثم تأتي الظروف الطبيعية من موت بفيضان أو ببرق أو بريح عاصف، رابع الصور التي تمثّل الكوارث. وبهذا سيكون وقوفنا عند هذه

(٨) تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي): ص ٤٢٠.

(٩) تفسير الماوردي = النكت والعيون: ج ٢/ ص ٢٥٠.

الأنماط الأربعة وتجلياتها في الشعر العربي منذ عصر ما قبل الإسلام وإلى القرن الثالث الهجري، التي تعبر بمجموعها عن أدب الكوارث.

عبر الشعر العربي في أول عصره، عن احتفائه بقيمة الكرم وإطعام الضيف، بما يؤكد هلع الإنسان في ذلك العصر، مما يقع عليه من مخصصة في انعدام تلك القيمة، فالكارثة تحلُّ بهم حين لا يجد أحدهم ما يسدُّ جوعته، وكثيرٌ من الشواهد الشعرية تدلُّ على تعييرهم البخيل، لعل أبرزها قول الأعشى يهجو فيه علقمة^(١٠):

تبيتون في المشتى ملاءً بطونكم

وجاراتكم غزنى يبتن خمائصا

والبيت فيه إشارات ذكية تُعري رجولة المهجور وبُعدَه عن أبده القيم العربية التي ينبغي التحلي بها، فقد جعل مهجوه وعشيرته «يملاؤن بطونهم ويتخمون في ليالي الشتاء الباردة؛ على حين يشتد كلبُ الجوع والمسغبة على جاراتهم. واختار النساء لينزع من قلوبهم كل عطف ورحمة؛ فهم ليسوا بخلاء فحسب؛ بل إن قلوبهم لأشد قسوة من الحجارة»^(١١)، ولهذا لا نستغرب في ظل تلك الظروف الخانقة اقتصادياً على إنسان ذلك العصر، أن تبرز فئة (الصعاليك) التي نذرت نفسها؛ لأجل تحصيل الطعام لمن لا يقدر عليه، حتى وإن عرّضت نفسها للتلف، أو النبذ الاجتماعي، فنجد مثل الشنفرى، مفتخرًا بجوعه ومستمتعًا فيه لما فيه من دفع لجوع آخرين شارفوا على الموت^(١٢):

أديمٌ مطالٌ الجوع حتى أميته

وأضربُ عنه الذكر صفحاً فأذهل

وأستفُّ ترب الأرض كي لا يرى له

علي من الطول امرؤ متطول

ولم يقتصر الحديث عن الجوع في أشعارهم

فحسب، بل تجد صدى ذلك أيضًا في أخبارهم، ففي الخبر عن عروة «أن ناسا من بني عيس أجدبوا في سنة أصابتهم، فأهلك أموالهم، وأصابهم جوع شديد وبؤس»، فأتوا عروة يستنجدون به، فخرج «ليغزو بهم ويصيب معاشا». وتنتشر في شعره وأخباره مناقشات بينه وبين صعاليكه حول الجوع الذي كان يجهدهم في غزواتهم. ويذكر الرواة أن أبا خراش الهذلي أقفر من الزاد أياما. ويحدثنا السليك بن السلكة في بعض شعره كيف كان يغمى عليه من الجوع في شهور الصيف حتى ليشرف على الموت والهلاك^(١٣)، وذلك في قوله^(١٤):

وما نلتها حتى تصعلكتُ حقبه

وكدتُ لأسباب المنية أعرف

وحتى رأيت الجوع بالصيف ضرني

إذا قمت تغشاني ظلالٌ فأسدف

ويمكن أن نعدَّ أشعار الصعاليك وجهًا صريحًا يمثل أزمة اجتماعية/اقتصادية، مرَّ بها مجتمع ذلك العصر، ولو لم تكن إلا أشعارهم في هذا المضمار، لما كان لنا أن نستدلَّ على قيمة الحياة والتشبُّت بها على الرغم من قساوة العيش في شبه الجزيرة العربية بصفة عامة، فهاجس الخوف من الموت جوعًا، يؤكِّد أصالة غريزة البقاء، بوصفها غريزة الكائن الحي. وهل يمكن لإنسان لا يكثرُ لأمر بقائه حيًّا من دون أن يعثرَ على طعام فيه كفاف يومه..؟ فمن هذه الناحية، يصحُّ أن نطلق على كلِّ أدب يتجلى فيه صوت الجوع، أنه أحد صور أدب الكوارث؛ لكونه يصدر عن نفسٍ لائبة تسعى لأجل قوت يومها بما يُتيح لها العيش يومًا إضافيًا في هذا العالم.

أما الموت الجماعي بسبب الأوبئة، فلم يكن حينها غير الطاعون، من وباءٍ أعياء أهل زمانه في الكشف عن سره لهم، ومن الواضح الذي لا ريب فيه أن حيرة الإنسان في عصر موغلٍ في شفاهيته، وأتكائه

(١٣) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، يوسف خليف

(١٤) السليك بن السلكة - أخباره وشعره: ص ٦٠.

(١٠) ديوان الأعشى: ص ١٤٩.

(١١) تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي): ص ٣٥١.

(١٢) ديوان الشنفرى: ص ٦٢.

على الموروث - بكامل حمولاته الثقافية - من أسلافه، دفعته إلى أن ينسب إلى الجنّ تلك الأفعال التي تودي بحياة الناس من دون أن يكون ثمة (دليل جرمي) - بحسب اصطلاح أهل القانون - يُثبت عليهم قيامهم بذلك الفعل، ولعل تسمية العرب للطاعون بـ (رماح الجن)^(١٥)، يأتي دليلاً يؤكد تعاملهم مع هذا الوباء بما يتناسب ومستوى ثقافتهم ومدركاتهم العقلية التي من خلالها تتبلور أفكارهم، فالجنُّ مخلوق غير مرئي له في مخيال العرب تلك الصورة المرعبة في قدرته على إفناء من يريد إيذائه من دون أن يراه أو يُحدّد مكانه، فكان لامرئ القيس في إحدى قصائده الشهيرة، أن يتحدّى من يُريد النيل منه، بقوله^(١٦):

أَيَقْتُلُنِي وَالْمَشْرِفِيُّ مُضَاجِعِي ...

وَمَسْنُونَةُ زُرُقٍ كَأَنْيَابِ أَعْوَالٍ

وبحسب قول الثعالبي (ت: ٤٢٩ هـ) «وهم لم يروا الغول ولكن لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به»^(١٧)، وعلى هذه الشاكلة، تضخمت صورة ذلك العدو اللامرئي في متخيلهم، فيجعلهم يهابونه كلَّ الهيبة، ويلصقون به كلَّ ما يُعجزهم رده من أفعال تقع عليهم، على الرغم من محاولاتهم اليائسة في ردِّ بعض من أذاه، تقع ضمن ما يُسمّى بـ «حيلة العاجز» فكانوا كما قال الجاحظ: «إذا دخل أحدهم قرية من جنّ أهلها، ومن وباء الحاضرة، أشدَّ الخوف، إلا أن يقف على باب القرية فيعشّر كما يعشّر الحمار في نهيقه، ويعلق عليه كعب أرنب. ولذلك قال قائلهم:

(١٥) ينظر: الحيوان: ج ١ / ص ٢٣٤، ج ٦ / ص ٤٢٩، والرسائل السياسية: ص ٤٢٤، وعيون الأخبار، لابن قتيبة: ج ٢ / ص ١٣٠، ومفيد العلوم ومبيد الهموم، للخوارزمي: ص ٤٨٥، وثمار القلوب، للثعالبي: ص ٥٤٧، ومحاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، للأصفهاني: ج ٢ / ص ٦٦٣، وربيع الأبرار ونصوص الأخبار، للزمخشري: ص ٣١٨..

(١٦) ديوان امرئ القيس: ص ٣٣. وأراد بالمسنونة الزرق: سهاماً محددة الأزجة صافية.

(١٧) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب: ص ٧٨.

ولا ينفع التّعشيرُ في جنبِ جرمةٍ

ولا ددعُ يغني ولا كعبُ أرنبٍ»^(١٨)

وهي إلى التقاليد والطقوس أقرب من كونها طُرُقاً للمعالجة والتوقّي من الوباء، ولعله يمكن القول: إنهم - العرب - لأجل أنهم قد عجزوا عن التشخيص الدقيق للوباء، وتبعه عدم الوقوع على دواء يقضي عليه، فقد أتاحوا لمخيلهم أن يبتكر ما يسدّ حاجتهم النفسية للوصول إلى السبب الحقيقي له، ويوجد حالة من التوازن بين القلق المتنامي لديهم من تداعيات الوباء، وفضولهم بإيجاد طريق للعلاج من جنس الوباء أو قريب منه على أقلّ تقدير. وقد يُفصح الشاعر الجاهلي، أن إجراءً يتخذ التّعشير وسيلةً لدرء خطر الطاعون عنه، ليس إلا صورةً بائسة من صور الجزع وعدم امتلاك الحيلة في المعالجة، وهذا ما ذكره لنا الجاحظ بقوله: «وقد قال عروة بن الورد، في التّعشير، حين دخل المدينة فقيل له: إن لم تعشّر هلكت! فقال:

لعمري لئن عَشَّرْتُ من خيفة الردى

نهاب الحمير إنني لجزوع»^(١٩)

فالجزع ليس إلا استسلاماً لوثبة الوباء وقوّة شكيمته، وليس إلا إقراراً بعدم جدوى الحيلة التي التجأ إليها عقلٌ ذاهلٌ لا يرى مخلصاً من ذلك الوباء المستطير.

وقد يجتمع مع الوباء كارثةٌ طبيعية، يطير فؤاد الشاعر القريب من الحدث فرقاً ودعراً لهما، فيصدر عن قلب هاجت أحزانه، وتعالّت عواطفه شدّة لقوّة الكارثة التي فجع بها، وهذا ما نجده عند ليبيد بن أبي ربيعة حين وفد على الرسول -

(١٨) ج ٦ / ص ٥٠٤.

(١٩) الحيوان: ج ٦ / ص ٥٠٥. وقد ذكر ابن طباطبا (ت: ٣٢٢ هـ) وقال عروة بن الورد في ذلك - وكان خراج مع أصحاب له إلى خيبر يمتارون منها فخافوا وباءها فعشّروا، وأبى عروة أن يفعل، فلما دخلوها، وامتاروا، وانصرفوا إلى بلادهم لم يبلّغوا مكانهم إلا وعامتهم مريض أو ميت إلا عروة، فقال: ... البيت»

في عام الوفود- مع عامر بن الطفيل وجابر بن سلمى بن مالك، فعرض الرسول عليهم الإسلام، فلم يسلموا، وفي عودتهم توفي عامر بالطاعون، وأصابته أريد صاعقة فأحرقته، فذلك قوله^(٢٠):

مَا إِنْ تُعْرِي الْمُنُونُ مِنْ أَحَدٍ

لَا وَالِدٍ مُشْفِقٍ وَلَا وَلَدٍ

أَخْشَى عَلَى أَرْبَدِ الْحُتُوفِ وَلَا

أَرْهَبُ نَوْءَ السَّمَاءِ وَالْأَسَدِ

فَجَعَنِي الرَّعْدُ وَالصَّوَاعِقُ بِالِ-

فَارِسِ يَوْمَ الْكَرِيهَةِ النَّجْدِ

ولا يخفى ما في الأبيات أعلاه، من إظهار للوعة الفقد التي سببتها الكارثة الطبيعية والوبائية، ما جعل الشاعر متقلباً بين أحزانه تارة، وبين أن يرى حزنه في سياق أحزان متصلة له بمن قضى عليه الموت من قبل، فلا والد يعرى من أحزان ذلك الفقد ولا ولد يسلم من أذاه، وبين أن يستحضر ما للفقيد من قيمة في حياته متمثلة بفروسيته وما تفرضه هذه القيمة من تعزيز لهوية القبيلة بين القبائل الأخرى.

ولعل الطاعون المرض الأكثر تفشيًا في العصور القديمة، كان له صدى في شعر ما قبل الإسلام، ومن الأمثلة المتوافرة، ما نقلته كتب الأدب ما قاله أبو دؤاد الإيادي، يرثي أبناء قومه الذين سقطوا ضحايا الطاعون^(٢١):

لَا أَعْدُ الْإِقْتَارَ عَدْمًا وَلَكِنْ

فَقَدَ مِنْ قَدَرِئَتِهِ الْإِعْدَامُ

مِنْ رِجَالٍ مِنَ الْأَقَارِبِ بَانُوا

مِنْ جِذَامِ هَمِ الرُّؤُوسِ الْكِرَامِ

سَلَطَ الْمَوْتُ وَالْمُنُونُ عَلَيْهِمْ

فَلَهُمْ فِي صَدَى الْمَقَابِرِ هَامٌ

وَكَذَاكَمْ سَبِيلُ كُلِّ أَنْاسِ

سَوْفَ حَقًّا تَبْلِيهِمُ الْآيَامُ

(٢٠) ديوان لبيد بن ربيعة العامري: ص ٣٤.

(٢١) ديوان أبي دؤاد الإيادي: ص ١٦٣ - ١٦٥. وقد أشار الجاحظ في قول الشاعر:

(سَلَطَ الْمَوْتُ وَالْمُنُونُ عَلَيْهِمْ فَلَهُمْ فِي صَدَى الْمَقَابِرِ هَامٌ)

أنه عنى به الطاعون الذي كان أصاب إبادا، ينظر: الحيوان: ج ٦/ ص ٤٣٠.

وهنا نجد الشاعر نافذ الصبر، مشئت العزيمة، فيما أصابه من حزن لموت أبناء قبيلته، ممن يرى فيهم القيم العربية الأصيلة، ولكن لم تشفع لهم وتدفع الموت عنهم، متخلصًا بنتيجة أن الموت في كل صورته المؤلمة، سيكون مصير الناس إليه، والأيام كفيلة بأن تنسى ذكر السابقين، لما يستجد من حزن لمن بعدهم من راحلين. وبعد مجيء الإسلام، أخذ الشعراء منحى آخر ينسجم وانتماءهم إلى الدين واعتزازهم بقيمه، فقد وجدنا الشعراء بعد رحيل الرسول (ص) إلى بارئته، يسبغون أفانين من الصور المفعمة بالحزن والأسى على فقدهم نعمة وجوده المبارك بين ظهراينهم، فيرون كل ما حولهم من مظاهر للطبيعة يعبر عن حزنه لفقد الرسول (ص) ويمثل كارثة عظيمة حلت بهم، ومن هذه الناحية، يمكن لنا أن نعد بعض تلك المراثي التي قيلت في الرسول وآل بيته أحد أنماط أدب الكوارث، وقد نقلت الأخبار أنه لما دُفن الرسول (ص) «ورجع المهاجرون والأنصار إلى رحالهم، ورجعت فاطمة إلى بيتها؛ فاجتمع إليها نساؤها، فقالت^(٢٢):

اغْبِرْ آفَاقَ السَّمَاءِ، وَكُورَتْ

شَمْسُ النَّهَارِ، وَأَظْلَمَ الْعَصْرَانِ

فَالأَرْضُ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّ كَنِيْبَةٌ

أَسْفًا عَلَيْهِ كَثِيرَةُ الرَّجْفَانِ

فَلِيْبِكِهِ شَرْقُ الْبِلَادِ وَغَرْبُهَا

وَلِيْبِكِهِ مَضْرٌ وَكُلُّ يِمَانِ

وَلِيْبِكِهِ الطَّوْرُ الْمُعْظَمُ جَوْهُ

وَالْبَيْتُ ذُو الْأَسْتَارِ وَالْأَرْكَانِ

يَا خَاتَمَ الرِّسْلِ الْمُبَارِكِ ضَوْءُهُ

صَلَّى عَلَيْكَ مَنْزِلَ الْفَرْقَانِ

وما ذكرته السيدة الزهراء وإن لم تشفع الأخبار التاريخية بتأكيد وقوعه، إلا أنه متحقق فعلاً بما يؤكده النص القرآني بصورة عامة في قوله تعالى حكاية عن قوم فرعون وما حل بهم من عذاب: «فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ»^(٢٣)، فقد أشار المفسرون إلى

(٢٢) تعليق من أمالي ابن دريد: ص ١٧٦.

(٢٣) سورة الدخان: ص ٢٩.

بكاء السماء^(٢٤)، وقياساً على بُكاء السماء، جعل المتخيل العربي يؤمن بتأثر سائر معالم الطبيعة حُزناً أو فرحاً على من يحلُّ فيها^(٢٥)، وقد أيد ذلك التصوُّر ما ذكرته الأخبار التاريخية عمَّا جرى على الحسين من مصابٍ عظيم تمثَّل في ظهور الدماء تحت الحجارة في بيت المقدس، بما يؤكِّد مقامه السامي عند الله سبحانه الذي تقارن به بعض تلك المرويات بمقام الأنبياء^(٢٦)، ويؤشِّر على غضبه على ذلك الجرم العظيم، فقد نُقل عن ابن سيرين أنه قال: «والحمرة التي مع الشفق لم تكن حتى قتل الحسين وحكمته على ما قال ابن الجوزي ان غضبنا يؤثر حمرة الوجه والحق منزه عن الجسمية فإظهار تأثير غضبه على من قتل الحسين بحمرة

(٢٤) نقل ابن عطية عن «علي بن أبي طالب وابن عباس ومجاهد وابن جبير: إن الرجل المؤمن إذا مات بكى عليه من الأرض موضع عبادته أربعين صباحاً، وبكى عليه من السماء موضع صعود عمله» المحرر الوجيز: ج ٥ / ص ٧٣. (٢٥) نقل ابن الجوزي عن ابن قتيبة «العرب تقول إذا أرادت تعظيمَ مهلكٍ عظيم: أظلمت الشمس له، وكسفت القمر لفقده، وبكته الرياح والبرق والسماء والأرض، يريدون المبالغة في وصف المصيبة، وليس ذلك بكذب منهم، لأنهم جميعاً متواطئون عليه، والسماع له يعرف مذهب القائل فيه ونيتهم في قولهم: أظلمت الشمس كادت تظلم، وكسفت القمر: كاد يكسف، ومعنى «كاد»: هم أن يفعل ولم يفعل قال ابن مفرغ يرثي رجلاً: الرِّيحُ تَبْكِي شَجْوَهُ... والبرق يلمع في غمامه، وقال الآخر: الشمس طالعة ليست بكاسفة... تبكي عليك - نجوم الليل والقمر! أراد: الشمس طالعة تبكي عليه، وليست مع طلوعها كاسفة النجوم والقمر؛ لأنها مظلمة، وإنما تكسف بضوئها، فنجوم الليل بادية بالنهار، فيكون معنى الكلام: إن الله لما أهلك قوم فرعون لم يبك عليهم بك، ولم يجزع جازع، ولم يوجد لهم فُقد» زاد المسير في علم التفسير: ج ٤ / ص ٩١.

(٢٦) ذكر ابن أبي حاتم الرازي (ت: ٣٢٧هـ) في تفسيره «عن عبيد المکتب عن إبراهيم - رضي الله عنه - قال: ما بكت السماء منذ كانت الدنيا، إلا على اثنين قبل لعبيد: أليس السماء والأرض تبكي على المؤمن؟ قال: ذاك مقامه وحيث يصعد عمله. قال: وتذري ما بكاء السماء؟ قال لا. قال: تحمر وتصب وردة كالدهان، إن يحيى بن زكريا لما قُتل، احمرت السماء وقطرت دماً. وإن حسين بن علي يوم قُتل احمرت السماء»، ج ١٠ / ص ٣٢٨٩.

الأفق إظهاراً لعظيم الجناية ولم يُرفع حجر في الدنيا يوم قتله الا وجد تحته دم عبيط^(٢٧)، فجعل الشعراء يربط الحدث بالسبب، ومن أوائلهم كان سليمان بن قتة في قوله^(٢٨):

ألم تر أن الأرض أضحت مريضةً

لفقد حسين والبلاد اقشعرت

وقد أعولت تبكي السماء لفقده

وأنجمها ناحت عليه وصلت

وهذه المظاهر الطبيعية التي لحظها الشاعر، لم تكن إلا في منظوره العقدي الذي من خلاله يرى تلك المتغيرات الكارثية التي حلت في الأرض والسماء، باعتبار ما للمقتول من حرمة كبيرة ومقام شريف عند الله، يجزم أن كل ما حوله من موجودات في الطبيعة تتأثر حزناً لذلك الحدث الجلل، وليست هي بمعزل عمَّا يجري، فهي بعبارة أخرى ليست بجمادات وإنما هي حية في علم الله وتقديره، فتبكي لمن جعلهم الله سادة يهتدي بهم البشر، وليس ذلك على الله بعزيز.

فضلاً عن الكوارث من أوبئة تأخذ أثرها في الناس، وتُفنيهم لقلّة معرفة أهل ذلك العصر بما يُمكن اتخاذه من إجراءات وعلاجات تحدّ شرة ذلك الوباء، فلا نجد الشاعر إلا هائماً في حزن يأخذ عليه مجامعه، ويتركه في كمد دائم، قد يُدأريه بما يؤمن به من قضاءٍ وقدر، وليس له إلا أن يتصبر لذلك الحادث الجلل، وقد نقل لنا التاريخ أنه «كان هلك لأبي ذؤيب بنون حمسة في عام واحد أصابهم الطاعون وكانوا هاجروا إلى مصر»^(٢٩)، فما كان له إلا أن يرثيهم بإحدى أروع مراثي الشعر العربي، وهي التي يقول فيها:

أمن المنون ورئبها تتوجع

والدهر ليس بمعتب من يجزع

قالت أميمة ما لجسمك شاحباً

مُنذ ابندلت ومثل مالك ينفع

(٢٧) روح البيان، أبو الفداء: ج ٤ / ص ١٤٤.

(٢٨) تاريخ الإسلام: ج ٥ / ص ١٠٨.

(٢٩) خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب، للبغدي: ص ٤٢٠.

أَمْ مَا لِحَبْنِكَ لَا يَلَانِمُ مُضَجًّا
 إِلَّا أَقْضَى عَلَيْكَ ذَاكَ الْمَضْجَعُ
 فَأَجَبْتُهَا أَمَّا لِجِسْمِي أَنَّهُ
 أَوْدَى بَنِيَّ وَأَعْقَبُونِي عُصَّةً
 بَعْدَ الرَّقَادِ وَعَبْرَةً لَا تُتْقَلَعُ

إلى آخر القصيدة التي نيفت على السنتين
 بيتاً بحسب ما أثبتها الضبي (ت: ١٦٨ هـ) في
 مفضلياته^(٣٠).

تنبغي الإشارة إلى أن ثمة موقفين متباينين من
 الوباء أشيع في الأدبيات الإسلامية، يرى الأول منهما
 أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ يُرْسِلُهُ اللَّهُ نِقْمَةً وَعُقُوبَةً عَلَى مَنْ يَشَاءُ
 مِنَ الْعَصَاةِ مِنْ عِبِيدِهِ وَكَفَرْتِهِمْ، أما الآخر فقد
 يُرْسِلُهُ شَهَادَةً وَرَحْمَةً لِلصَّالِحِينَ^(٣١)، وبمقتضى
 هذين الموقفين، تباينت المرويات الإسلامية، بين
 داع مضمون بعضها إلى التسليم بالوباء بوصفه
 ابتلاءً من الله يُثيب عليه عباده لصبرهم، وبمقتضى
 ذلك يكون الفرار منه كالفرار من الزحف، وبين
 داع بعضها إلى الهروب منه، ويمكن الجمع بينهما
 بتوجيه «أَنَّ عَلَى الْمَرْءِ تَوَقِّي الْمَكَارِهِ قَبْلَ نَزْوِلِهَا،
 وَتَجَنُّبِ الْأَشْيَاءِ الْمَخُوفَةِ قَبْلَ هُجُومِهَا، وَأَنَّ عَلَيْهِ
 الصَّبْرُ وَتَرْكُ الْجَزَعِ بَعْدَ نَزْوِلِهَا»^(٣٢)، ولعل أثر
 كلا الموقفين انعكسا فيما وصلنا من أشعار لمن
 ابتلوا بهذا الوباء، فنجدهم بين هذين الموقفين،
 الذين يُعبرون عن تمثّل الشاعر المسلم لكلا هذين
 الموقفين، فهو بين راج السلامة في نفسه وفي من
 أحبّ، وبين صابر على وقوع الوباء عليه وعلى من
 حوله، وإن كان الفراق صعباً لا يكاد يُسيغه أحد
 من الناس.

وقد نقلت الأخبار أَنَّ الطواعين كانت من أبرز
 الكوارث الوبائية التي حلّت بالمسلمين في تلك
 العهود، فكان العراق والشام أبرز الحواضر التي
 ضربها الطاعون، وكان أبرزها خمسة طواعين

ضربت العراق^(٣٣)، ذهب ضحيتها كثيرٌ من
 الصحابة وأبنائهم، ومن أجمل المراثي التي نقلها
 لنا المبرد قول المرقع بن العلاء، أحد بني ربيعة
 ابن مالك بن زيد مناة، حين هرب من الطاعون،
 وله اثنا عشر ابناً، فماتوا جميعاً، فدفنهم في سفح
 سنام فرثاهم^(٣٤):

دَفَنْتِ الدَّافِعِينَ الضَّيْمَ عَنِّي
 بِرَابِيَةِ مَجَاوِرَةِ سَنَامَا
 أَقُولُ إِذَا ذَكَرْتَهُمْ جَمِيعاً

بنفسي تلك أصداء وهاما
 فليت حمامهم إذ فارقونا
 تلقّانا وكان لنا حماما
 فلم أر مثلهم هلكوا جميعاً

ولم أر مثل هذا العام عاما
 ولا يخفى أَنَّ هذه الأبيات، تعبّر عن لوعة الحزن
 لفقد الأحبّة، ويرى الشاعر أَنَّ موتهم لم يكن
 موتاً طبيعياً، بل هو بفعل فاعل مجهول لديه، ما
 يدفعه لأن يأخذ بثأرهم، وهذا ما توارثه العرب عن
 أسلافهم في عصر ما قبل الإسلام، «فإنهم كانوا
 يزعمون أن الميت إذا دفن خرج من قبره طائر
 مثل الهامة فلا يزال يصيح على قبره بالليل حتى
 يقتل من قتله ويدرك بثأره»^(٣٥). ويتمنى أَنَّ ما
 أصابهم من موتٍ كان موجّهاً إليه؛ فداءً لهم، فهم
 أبناؤه الذين يمتثلون وجوده الحقيقي فيما بعده.
 والأبيات بمجملها تمثّل عاطفة صادقة من أب فقد
 أولاده بوباءٍ يجهل أعراضه وكيفية الوقاية منه،
 حتى الهرب لم ينفع في التخلص من برائته.

واستمرّ الحال بالشعراء، يلحظون تلك الكوارث
 الطبيعية، فيسجلونها في شعرهم، ويُعربون عمّا
 تبوح به نواتهم من مشاعر وأحاسيس تارة،
 ويُعلّلون حدوث بعض تلك المظاهر بما ينسجم
 ومرجعياتهم الفكرية أو المذهبية أو ما تملّيه عليهم

(٣٣) ينظر: التعازي، المبرد: ص ٢١٥.

(٣٤) المصدر نفسه: ص ٢١٦.

(٣٥) أبيات المعاني الكبير، ابن قتيبة الدينوري: ج ١/
 ص ٣٠٥.

(٣٠) المفضلّيات: ص ٤٢١.

(٣١) ينظر: تفسير القرطبي: ج ٣/ ص ٢٣٥.

(٣٢) المصدر نفسه: ج ٣/ ص ٢٣٢.

وهل ترك الطاعون لي من قرابة
 إليه إذا كان الإياب أؤوب؟
 وكنا نرّجي أن نصير إليهم
 فغالتهم من دون ذلك شعوبٌ
 مقادير لا يغفلن من كان يومه
 لهنّ على كل الأنام رقيبٌ
 سقين بكأس الموت من قد أصبته
 وللحي من أنفاسهنّ ذنوبٌ
 فقد أصبحوا لا دارهم منك غربةً
 بعيدٌ، ولا هم في الحياة قريبٌ
 وهونٌ عني بعضٌ وجدي أنني
 رأيت المنايا تغتدي وتثوبٌ
 وأني رأيت الناس أفنى كرامهم
 حوادثٌ، كلّ العالمين تصيبٌ
 وما نحن إلا منهم غير أننا
 إلى أجل ندعى له فنجيبٌ
 يتحسّس الشاعر الغربة التي مني فيها وهو
 في دار غربة، حيث انقطع أمله بمن كان يرجو
 أن يلتقيهم، فتقرّ له عين، أما الآن، فقد هاله
 الفقد، واشتملت عليه الهموم، فيجد نفسه من
 كثرة الهموم التي تناوشته من كل حدب وصوب،
 كسعة النخيل المجردة من أوراقها، وفي ذلك
 إشارة إلى هزال بدنه، ثم يبدو له أنه في وهم من
 ذلك الخبر الفاجع، فيسأل أصحابه عمّن فقدهم
 بلقاء يشفي حرقه اشتياقه إليه، ثم يُدعن أخيراً
 لحكم الموت، فيجد أنّ الطاعون قد أتى على أقرابه،
 فالمقادير حكمت أن تفصل بينه وبينهم، فقد
 سقتهم كؤوس الموت، ثم يصدر الشاعر في آخر
 الأبيات عن رؤية تُترجم إيمانه بقضاء الله الذي لا
 رادّ له، فكلّ العباد سائرٌ إلى ذلك المأل، على الرغم
 من ملاحظته أنّ الكرام الذين تركوا طيب الأثر، هم
 الأسرع لحوقاً إلى بارئهم، الأمر الذي أضفى على
 خاتمة الأبيات مسحة من وقار المؤمن الذي ينتظر
 أجله، ولا يعترض على أمر الله في كل حال. والأبيات
 في مجملها، لم تخرج عن التصوّر الإسلامي لتجربة
 الفقد، إذ بقي الشاعر رهيناً بين أحزانه على من

المصالح الشخصية المترتبة من وراء تلكم التعليقات
 في أدبهم شعراً كان أم نثراً، وقد توالى الطواعين
 تفتك في كل مدة تظهر فيها، من تفتك بهم، فكانت
 الشام بحسب ما ذكره الثعالبي أكثر الحواضر
 ابتلاءً به، والشواهد الشعرية تطول، ويكفي أن
 نقف على ما ذكره عن بعض بنى المغيرة فيمن
 مات منهم في طواعين الشام أيام ذلك^(٣٦):
 من ينزل الشام ويعرس به
 فالشام إن لم يفننا كاربٌ
 أفنى بنى ريطة فرسانهم
 عشرين لم يقصص لهم شاربٌ
 ومن بنى أعمامهم مثلهم
 لمثل هذا يعجب العاجبٌ
 طعن وطاعون منايهم
 ذلك ما خط لنا الكاتبٌ
 ويؤدي قائل هذه الأبيات، نزعت التشاؤمية من
 الشام، فقد ذكر من فني من الفرسان الأشداء من
 قبل، وغيرهم ممن توالى عليه المصائب والهموم،
 بين مطعون بالسيوف، وبين من مات بالطاعون،
 وكأن قدر كل من سكنها أن يكون كذلك.
 ومن النماذج التي تعكس لنا ما يمثل الشاعر
 الإسلامي الذي يستقبل الوباء في أهله الأقربين،
 بنفس راضية بقضاء الله وقدره، مع ما يبديه من
 حرقة والتياح لذلك الفقد، قول ابن شبل بن معبد
 البجلي وهو في شيراز وبلغه موت أهله بالطاعون،
 فجزع عليهم فقال^(٣٧):
 سما لك في شيراز هم فلم تنم
 غريباً كما بعض الرجال غريبٌ
 برتني صروف الدهر من كل جانب
 كما ينبري دون اللحاء عسيبٌ
 أقول لأصحابي وقد قذفت بنا
 نوى غربة عمّن نحب شطوبٌ
 متى العهد بالأهل الذين تركتهم
 لهم من فؤادي بالعراق نصيبٌ

(٣٦) الحيوان: ج ٤ / ص ٢٢٦، والتعازي: ص ٢١٩، وثمار
 القلوب: ص ٥٤٧.
 (٣٧) التعازي: ص ٢١٩.

افتقدهم، وتمني أن يكون بدلاً عنهم، وبين إيمانه بالقضاء، وليس له إلا أن يتصبر على ما وقع عليه من بلاء. ومثل هذا النسق تكشف لنا عبر فحص بنية الأبيات، والتوصل من خلالها إلى وجهة النظر التي انعكست فيها.

وحين يقف العلم عاجزاً في مواجهة بعض الأوبئة المستعصية والأمراض المتفشية، لا نستغرب أن نجد تمثيلاتٍ أحر للحيرة البشرية إزاء هكذا كوارث، فمنهم - وهم الذين ينتمون إلى الأديان - يرى أن العلاج الوحيد، يتلخص بالتقرب إلى الأولياء والصالحين، الأحياء منهم والأموات، والتوسل بقبور الباركين الذين تتظافر المرويات الشعبية بشيوع كراماتهم بين أتباعهم، ومنهم من يتلمس في الأدوية الشعبية والعقاقير أو غيرها من الممارسات اللاعقلانية من سحر أو شعوذة شفاء من تلك الأوبئة وإشباعاً له عن الحيرة التي تعتمل في ذهنه، مؤمناً بها وداعياً الآخرين إلى اعتناق القائلين بها، ومنهم من يستثمر تلك الحوادث؛ ليجعلها سبباً لهجاء السلطة الجائرة، أو العكس من ذلك، حيث يتزلف إلى السلطة بانقطاعها عن الناس في المدة التي تزامنت مع حكم تلك الدولة، وهذا ما عمله الجاحظ في حديثه عن سبب انقطاع الطاعون ببركة حكم آل بني العباس، مؤشراً مدى الإفساد الذي تركته السلطة السابقة في رعيّتها فكان الطاعون انتقاماً إلهياً لها^(٣٨)، ومنهم من يقف حائراً بين أن يجد لتلك الكوارث والنكبات تفسيراً علمياً، أو أن ينفرد عقد حكمته مصرحاً

(٣٨) ينظر: ثمار القلوب: ص ٦٨. بقول المؤلف: «قال الجاحظ وقد كانت الطواعين تقح كثيراً فتصير تواريخ كطاعون عمواس وطاعون العذارى وطاعون الأشراف وغيرها ولما ملك بنو العباس رفع الله ببركتهم الطواعين والموتان الجارف عن بني آدم فإنها كانت تحصد فيهم حصداً وفي ذلك يقول العماني للرشيد (قد أذهب الله رماح أجن... وأذهب التعليق والتجني) يُريد أن ما كان بنو مزوان يفعلونه من مطالبة الناس بالأموال وتعذيب عمال الأخرج بالتعليق والتجريد.

بعبثية العالم، وعبثية الوجود، فيخرج بنمط من التفكير غير الذي كان عليه من قبل حلول الكارثة.. ومن الكوارث التي أشرنا إليها في أول حديثنا عن أدب الكوارث، وهي المعارك التي تخلف العدد الكثير من الضحايا، وهذا ما كان في وقعة (قس الناطف) إحدى أبرز المواجهات الدامية بين عساكر المسلمين وأعدائهم من الفرس، فكانت «كارثة الجسر، تلك الهزيمة الوحيدة التي لحقت بالمسلمين في جميع فتوحاتهم؛ إذ أخذتهم السيوف والغرق والفرار من كل جانب، وقد ترامت أنباء الهزيمة في بلاد العرب»^(٣٩)، وفيها قال حسان بن ثابت^(٤٠):

لقد عظمت فينا الرزية إننا

جلاداً على ريب الحوادث والدهر
على الجسر يوم الجسر لهفي عليهم
فيا لهف نفسي للمصاب على الجسر
يقول رجال ما لحسان باكياً

وما لي لا أبكي على المعشر الزهر
فإني لبك ما حبيت ولو بكى
على الميتم ميتم جُدت بالدمع في قبري
أصيبوا وفي شهر الصيام بقية

لسبع ليالٍ، تلکم ليلة القدر
وتبدو عظمة المصيبة التي وقعت على المسلمين، من حجم خسائرتهم في الأرواح، على الرغم من صبرهم أمام الحوادث الكبرى، ولكنها كارثة أطاحت بصبر من بقي منهم، فلا يجد الشاعر - وهو أحد أفراد الجماعة المسلمة - إزاء هذا المصاب الجلل، سوى أن يذرف دموع عينيه حزناً على من استشهد في هذه الواقعة، ويشتد الحزن على قلب الشاعر ويستولي عليه، حين تكون الواقعة متزامنة في أيام شهر رمضان المبارك، بل يؤكد أنهم قضوا في ليلة القدر: الليلة التي شرفها الله بين ليالي شهره الكريم، وبهذا تأخذ دلالة قتل هؤلاء المجاهدين، بُعداً روحياً، يتمثل بكونهم تشرفوا بلقاء باريهم

(٣٩) شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام: ص ١١٥.

(٤٠) ديوان حسان بن ثابت: ص ٤٢٢.

أَتَيْنَاكَ وَالْعَدْرَاءُ يَدْمَى لَبَانُهَا^(٤٥)
 وَقَدْ ذَهَلَتْ أُمُّ الصَّبِيِّ عَنِ الطِّفْلِ
 وَاللَّقَى تَكْنِيهِ الشَّجَاعُ اسْتِكَانَةً
 مَنْ الْجُوعِ صُمَّتًا لَا يَمُرُّ وَلَا يُحْيِي
 وَلَا شَيْءَ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ عِنْدَنَا
 سِوَى الْعِلْهِزِّ الْعَامِيِّ وَالْعَبْهَرِ الْفَسْلِ
 وَلَيْسَ لَنَا إِلَّا إِلَيْكَ فِرَارُنَا
 وَأَيْنَ فِرَارُ النَّاسِ إِلَّا إِلَى الرَّسْلِ
 فَإِنْ تَدْعُ بِالسَّقِيَا وَبِالْعَفْوِ تُرْسِلِ -

سَمَاءُ لَنَا وَالْأَمْرُ يَبْقَى عَلَى الْأَصْلِ
 يظهر جلياً للمتأمل في هذه الأبيات، أن صاحبها،
 لم يجد غير رسول الله من ملجأ يفرُّ إليه،
 فالكارثة مُحِيقَةٌ بقومه أجمعهم، والموت يخفق
 فوق رؤوسهم، والفرار يختصر لنا شدة الحال
 المعيشية التي بلغها الشاعر - بوصفه الناطق
 عن لسان قبيلته - بما يدفعه للتوسُّل بالرسول
 أن يدفع بجاهه عند الله الضراء عنهم، وتنفرج
 عليهم تلك الغمّة. وحين يأتي الشاعر بتلك المشاهد
 الموغلة في بؤسها، فهي تُعلن عن نسقها الثقافي في
 إثارة المُخاطَبِ بها، وجعله يمتثل للطلب المُضْمَن
 فيها، فضلاً عمّا تتركه من انطباع بكثرة ورودها،
 وجعلها الواقع المعيش السيئ لأولئك المنكوبين
 ممّن ارتهن بتلك الظروف القاسية؛ لذا سيكون
 تحقيق الطلب من الآخر على قدر عالٍ من الاهتمام؛
 لما تركته دلالات تلك المشاهد من أثرٍ نفسي يعمل
 على تحفيزه للاستجابة بالدعاء لهم.

ومن بين أشهر الحوادث التي عبّرت لنا عن الكوارث
 في تفشي المجاعات، كانت في خلافة عمر بن الخطاب
 (رضى الله عنه) سنة ثمانية عشرة للهجرة^(٤٦).
 حين أصاب الناس فيه قحطٌ حتّى صارت وجوههم
 بلون الرماد من الجوع. فكانت الريح تسفى ترابا

في شهره، وهم في حال الصيام، فما أعظم المنقلب
 الذي انقلبوا إليه..! وبهذا تكون الرؤية الإسلامية
 واضحة الأثر في خطاب الشاعر، حاكمة على
 تصوّراته للحدث.

وفيما يخصّ المجاعات في عصر الإسلام وما بعده،
 فلم تكن الحال المعيشية بأفضل مما كانت عليه
 في السابق؛ وذلك لما نوهنا عنه في بداية البحث،
 من قساوة الطبيعة، التي لم تجد على ساكني تلك
 البقعة الجغرافية، بما هو فوق طاقتها، فكان
 الجذب والقحط هما أكثر الأحوال هيمنة على مدار
 السنة، ولذا كان العرب «إذا تتابعت عليهم الأزمت
 وركد عليهم البلاء، واشتدّ الجذب، واحتاجوا إلى
 الاستمطار، استجمعوا وجمعوا ما قدروا عليه من
 البقر، [...] ثمّ سعدوا بها في جبل وعر، وأشعلوا
 فيها النيران، وضجّوا بالدعاء والتضرّع»^(٤١)، فكان
 التضرّع في عصر صدر الإسلام بالنبي الأكرم،
 معبّراً عن وجهة جديدة، تمثّل إيمان المسلمين بما
 للرسول من جاهٍ عند الله سبحانه، يدفع عنهم
 الضراء، ويريهم الخير في إخصاب الأرض بعد
 إمحالها، ويرفع الكارثة التي ستُحقيق بهم فيما
 لو استمرّ أمدها عليهم، والأمثلة الشعرية في هذا
 الصدد، وإن كانت قليلة، ولكنها مع ذلك تؤدّي
 الغرض، في رسمها صورة صادقة للشدة التي وقع
 فيها الناس، من فقرٍ ألمّ بهم، وفاقة جعلتهم زاهلي
 التصرف، ودفعتهم إلى أكل العلهز، وهو «قردان
 تعالج بدم الفصد مع شيء من وبر وكانوا يدخرون
 ذلك لزمان الجذب»^(٤٢)، ومن تلك الشواهد قول
 لبيد بن ربيعة العامري حين يخاطب الرسول صلى
 الله عليه وسلم، حين وفد عليه^(٤٣):

أَتَيْنَاكَ يَا حَيْرَ الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا

لِتَرْحَمَنَا مِمَّا لَقِينَا مِنَ الْأَزْلِ^(٤٤)

(٤٥) اللبان: الصدر.

(٤٦) ينظر: نهاية الأرب في فنون الأدب: ج ١ / ص ١٦٧.
 وذكر ابن العماد الحنبلي أنها سنة سبعة عشرة للهجرة،
 ينظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ج ١ / ص ١٦٥.

(٤١) الحيوان: ج ٤ / ص ٤٩٢.

(٤٢) المعاني الكبير في أبيات المعاني: ج ١ / ص ٤٢٦.

(٤٣) ديوان لبيد بن ربيعة: ص ٩٧.

(٤٤) الأزل: ضيق العيش.

كالرّماد لشدة يبس الأرض^(٤٧) - وقيل إنها سُميت بالرّمادة من الهلاك؛ ومنه قيل: عام الرّمادة؛ لأنّ الناس والأموال هلكت فيه كثيراً^(٤٨)، وكان للخليفة أنّ يستجيب للنسق الاجتماعي السائد، الذي يؤمن بالكرامة للنبيّ، ولا ينحصر هذا التصوّر بالنبيّ لا سيّما بعد وفاته، بل تجد من يرى الكرامة في من اتّصل بقرباه، فيقدّم الخليفة العباس عمّ النبيّ في صلاة الاستسقاء، فتتجلي الغمّة عن الناس، بانهمار السماء مطراً فيه بشارة بانتهاء الجذب، «فطفق الناس بالعبّاس يمسخون أركانه، ويقولون: هنيئا لك ساقى الحرمين»^(٤٩)، فقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب (ت: ٩٥ هـ) في ذلك:

بِعَمِّي سَقَى اللَّهُ الْجِجَارَ وَأَهْلَهُ

عَشِيَّةً يَسْتَسْقِي بِشَيْبَتِهِ عُمَرَ

تَوَجَّهَ بِالْعَبَّاسِ فِي الْجَذْبِ رَاغِبًا

إِلَيْهِ فَمَا إِنْ رَامَ حَتَّى أَتَى الْمَطَرَ

وَمِنَّا رَسُولُ اللَّهِ فِينَا تَرَانُهُ

فَهَلْ فَوْقَ هَذَا لِلْمُفَاخِرِ مُفْتَحَرُ

وتُبدى لنا الأبيات نزعة التفاخر القبليّة لدى الشاعر؛ لكونه ينتمي إلى من فضّلهم الله بهذه الكرامة، وليس ثمة حيلة لدفع المخوف من تداعي الحال، واشتداد البؤس والشقاء على الناس في تلك السنة، غير التوجّه لمن يرى الناس فيهم سبب الخير والفلاح، فكان التوسّل بعَمّ النبيّ طريقاً لانفراج الأزمة. وبهذا النسق القبلي الذي أخذ لونا إسلامياً بالنظر لما للدين من إضفاء تلك القيم على ذلك النسق، أراد الشاعر أن يضع الخلافة - مهما جهد صاحبها في حرصه على تحقيق العدل - في مقام دون مقام النبوة، وما يتّصل بصاحبها من قرابة، فهي الغطاء الشرعي للخلافة، وعليه استثمر الخليفة وجود قربى النبيّ في إصلاح الشأن العام

(٤٧) ينظر: نهاية الأرب في فنون الأدب: ج ١/ ص ١٦٧.

(٤٨) ينظر: الذخائر والعبقريات، عبد الرحمن البرقوقي:

ج ١/ ص ٢٧٤.

(٤٩) نهاية الأرب في فنون الأدب: ج ١٩/ ص ٣٥٣.

بما فيه نفع الناس كافة، وفي الوقت نفسه، استثمر الشاعر ذلك الموقف؛ لبيان أهمية التمسك بتلك القرابة؛ لما لها من أثر يصبّ في المصلحة العامة، وهذا ما يُضاهي به الشاعر بين الناس، كونه يمتّ أيضاً بصلة القرابة للنبيّ.

وفي الختام نوّكّد أصالة وجود هذه الموضوعات - التي تشكّل في مجموعها ما نطلق عليه اسم (أدب الكوارث) - من بين موضوعات الأدب التي رافقت المسيرة الإنسانيّة على طولها، ولبيان أنّ الشاعر لم يكن مكتوف الأيدي إزاء ما يحدث حوله من كوارث، وكيف وقد سُمّي شاعراً، ذلك الوصف المأخوذ بقصد وعناية من دلالة العلم، والتي تُنبئ عن معرفة تتحصّل لديه يفتقر سواه إليها، فيبث ما يعرفه في خطابه الشعري، بما يُشكّل جرس إنذار لدى قومه، منبّهاً لهم بما سيحلّ عليهم من مضاعفات الكارثة المدمّرة فيما لو وقعت عليهم، وهذا الأمر لم يقتصر على الكوارث الطبيعيّة فحسب، بل كان يشمل أيضاً ما يُخشى وقوعه من عدوانٍ لآخرين من الدول أو الجماعات، على الأمة/ الجماعة التي ينتمي إليها الشاعر، ويشهد التراث الشعري العربي على دور الشاعر في قومه، ما جعل ابن رشيق القيرواني (٤٦٣ هـ) يُصرّح بمكانة الشاعر بقوله: «كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها، وصنعت الأطمعة، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر، كما يصنعون في الأعراس، ويتباشر الرجال والولدان؛ لأنه حماية لأعراضهم، وذبّ عن أحسابهم، وتخليدٌ لمآثرهم، وإشادةٌ بذكورهم. وكانوا لا يُهنّئون إلا بغلام يُولد، أو شاعر ينبغ فيهم، أو فرس تنتج»^(٥٠). وهذا ما يؤكّد أهمية الأثر الذي يُؤدّيه الشاعر في قومه، ولم يكن الشعر مجرد لهو يملأ الشاعر به فراغه، أو يتوصّل من خلاله لأغراضه الشخصية. وإلا ما سرّ هذا الاحتفاء به لو لم يكن عضواً فاعلاً في مجتمعه الذي ينتمي إليه.

(٥٠) العمدة في محاسن الشعر وآدابه: ص ٦٥.

● الخاتمة:

كان للبحث أن يقف عند نماذج من شعر العصرين: قبل الإسلام وبعده، مسلطاً الضوء على ما تضمنته تلك النماذج من أفكار، وهنا نوجز تلك الأفكار بحسب الآتي:

- في المحور الأول، اتضح لنا أن دلالة الكارثة، لا تقتصر على ما تحدثه الظروف الطبيعية من ظواهر كالفيضانات أو عواصف، أو براكين، بل تشمل كل ما يمكن أن يشغل اهتمام الناس ويثير فيهم الرعب والقلق، وبهذا تكون الظروف الطبيعية واحدة من تجليات دلالة الكارثة.

- كان لنا أن نقف عند أبرز تجليات مفهوم الكارثة، متحققاً في: الظروف الطبيعية، والوبائية، والمجاعات، والحروب سواءً الداخلية منها أو الخارجية، فهي تخلف آثاراً سيئة على من يقع تحت طائلتها، وتحتاج وقتاً لإزالة تلك الآثار.

- يؤكد البحث أصالة هذا الأدب وقدمه بقدم وجود الإنسان على الأرض، ولم يفترق عنه مفهوم الكارثة في أي مرحلة من مراحل وجوده على الأرض.

- ظهر لنا في النماذج الشعرية الموزعة بين عصرين، بعض أوجه التشابه من حيث تلقي الكارثة في متخيل الجماعة، من حيث كونها تثير القلق والخوف في كل الأحوال، أما الاختلاف، فيلحظ أثر الإسلام في صياغة منظومة من الأفكار تنطلق من الإيمان بالله القادر على كل شيء، وأنه يتبلي عباده الصابرين ليجزيهم خيراً في العالم الآخر. وأن هذه الدار أعبأها لكي تكون سبباً لنيلهم الثواب.

- تركّز في مخيال الشاعر الجاهلي، صورة وهمية لبعض تجليات الكارثة، وأعني بذلك تصوّره للطاعون كونه رماح الجن، وبيننا السبب في ذلك، وطريقة توقّيه منها، بما يُثبت هلعه من ذلك الوباء. وليس له أن يُقابل ذلك التصوّر الوهمي بتصوّر وهمي للعلاج، يعبر عن عجزه في إحاطة الوباء.

- استدل الباحث من حراك الصعاليك في عصر ما قبل الإسلام، على تفشي المجاعات، ما جعلهم يتأرون لذلك الوضع، من زاوية إنسانية، وفي أشعارهم الكثير من الشواهد على تلك المجاعات.

- في العصر الإسلامي، كان للمقدس الديني من رموز

ارتبطت بالسماء مثل النبي وقرابته، أثرها في إبعاد شرّ الجوائح المهلكة، ما جعل المسلمون يلوذون بهم ويطلبون منهم بما يملكونه من جاه، التوسّل إلى الله القادر على كل شيء، أن يجلي عنهم تلك الشرور.

● المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.

- تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي)، شوقي ضيف (المتوفى: ١٤٢٦هـ)، دار المعارف، د.ت.

- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين الذهبي (ت: ٧٤٨هـ)، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٩٩٣م.

-التعازي [والمراثي والمواعظ والوصايا]، محمد بن يزيد المبرد (المتوفى: ٢٨٥هـ)، تقديم وتحقيق: إبراهيم محمد حسن الجمل، مراجعة: محمود سالم، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.

-تغليق من أمالي ابن دريد، محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت: ٣٢١هـ)، تحقيق: السيد مصطفى السنوسي، مدرس اللغة العربية بجامعة الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت - قسم التراث العربي، ط ١، ١٩٨٤م.

-تفسير القرآن العظيم، عبد الرحمن بن محمد الرازي (ت: ٣٢٧هـ)، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، ط ٣، ١٩٤١هـ.

- تفسير الماوردي = النكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد الماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ)، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، د.ت.

- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، أبو منصور الثعالبي (ت: ٤٢٩هـ)، دار المعارف - القاهرة، د.ت.

- الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي (ت: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، ط ٢، ١٩٦٤م.

- الحيوان، عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ٢، ١٤٢٤هـ.

- خزائن الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي (ت: ١٠٩٣هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٤، ١٩٩٧م.

- ديوان أبي دؤاد الإيادي، جمعه وحققه: د. أحمد هاشم السامرائي، أنوار محمد الصالحي، دار العصماء، دمشق - سورية، ط ١، ٢٠١٠م.

- ديوان الأعشى، تحقيق: محمد محمد حسين، المطبعة

- النموذجية، القاهرة، د.ت.
- ديوان الشنفرى، جمع وحققه وشرحه: د. أميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٩٩٦ م.
- ديوان امرئ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط ٥، ١٩٩٠ م.
- ديوان حسان بن ثابت، حققه وعلق عليه: د. وليد عرفات، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٦ م.
- ديوان لبيد بن ربيعة العامري، اعتنى به: حمدو طمّاس، دار المعرفة، ط ١، ٢٠٠٤ م.
- الذخائر والعبقریات، عبد الرحمن البرقوقي، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، د.ت.
- ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، جار الله الزمخشري (ت: ٥٨٣ هـ)، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط ١، ١٤١٢ هـ.
- الرسائل السياسية، عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: علي بو ملحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٩٥ م.
- روح البيان، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوئي، المولى أبو الفداء (ت: ١١٢٧ هـ)، دار الفكر - بيروت، د.ت.
- زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي (ت: ٥٩٧ هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي - بيروت، ط ١، ١٤٢٢ هـ.
- السليك بن السلكة - أخباره وشعره، دراسة وجمع وتحقيق: د. حميد آدم ثويني، وكامل سعيد عواد، مطبعة العاني، بغداد، ط ١، ١٩٨٤ م.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي، (ت: ١٠٨٩ هـ)، تحقيق: محمود الأرناؤوط، خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ط ١، ١٩٨٦ م.
- شرح الشواهد الشعرية في أمات الكتب النحوية «لأربعة آلاف شاهد شعري»، محمد بن محمد حسن شرّاب، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ط ١، ٢٠٠٧ م.
- شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، د.النعمان عبد المتعال القاضي، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.
- الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، يوسف خليف، دار المعارف، القاهرة، ط ٤، د.ت.
- طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلّام (بالتشديد) بن عبيد الله الجمحي بالولاء، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٣٢ هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني - جدة.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ابن رشيقي القيرواني (ت: ٤٦٣ هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط ٥، ١٩٨١ م.
- عيار الشعر، محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم طباطبا العلوي (ت: ٣٢٢ هـ)، تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المناع، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ت.
- عيون الأخبار، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨ هـ.
- كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد (ت: ١٧٠ هـ)، المحقق: د مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.
- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، أبو القاسم الحسين بن محمد الأصفهاني (ت: ٥٠٢ هـ)، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت، ط ١، ١٤٢٠ هـ.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي (ت: ٥٤٢ هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٢ هـ.
- المطرب من أشعار أهل المغرب، أبو الخطاب عمر بن حسن الأندلسي (ت: ٦٢٣ هـ)، تحقيق: الأستاذ إبراهيم الأبياري، الدكتور حامد عبد الحيد، الدكتور أحمد أحمد بدوي، راجعه: الدكتور طه حسين، دار العلم للجميع للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م.
- المعاني الكبير في أبيات المعاني، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت: ٢٧٦ هـ)، تحقيق: المستشرق د سالم الكرنكوي (ت ١٣٧٣ هـ)، عبد الرحمن بن يحيى بن علي اليماني، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١، ١٩٨٤ م.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار، دار الدعوة، د.ت.
- المفضليات، المفضل بن محمد بن يعلى بن سالم الضبي (المتوفى: نحو ١٦٨ هـ)، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف - القاهرة، ط ١، د.ت.
- مفيد العلوم ومبيد الهموم، ينسب لأبي بكر الخوارزمي محمد بن العباس (ت: ٣٨٣ هـ)، المكتبة العنصرية، بيروت، ١٤١٨ هـ.
- ملحمة كلكامش، طه باقر، دار الوراق للنشر، ط ١، لندن، ٢٠٠٦ م.
- الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، د.ت
- نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين النويري (ت: ٧٣٣ هـ)، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط ١، ١٤٢٣ هـ.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين ابن الأثير (ت: ٦٠٦ هـ)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.